# الحضارة تنتحر ولا تقتل

## جامعة النجاح الوطنية



## د.سليمان أبو جاموس



عرفت الحضارة بأنها "القدرة على السيطرة على البيئة "وهي تمثل مرحلة إنسانية راقية ومتقدمة لبني الإنسان ،فهي رائدة وسباقة و مستكشفة لوضع إنساني أرقي وأفضل وأسمى .

وهي بطبيعة الحال ريادية وقيادية لبني البشر ، فهي تعني الوصول إلى الشيء قبل غيرها من البشر ، وهي نتيجة تفاعل عوامل عديدة و متشعبة ومتداخلة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا .... الخ ، وهي تعبر عن أنماط الشعوب وثقافتها وطموحاتها وسموها الإنساني .

وحتى توجد الحضارة فلا بد :

***أولا :*** من نجاحات مادية ملموسة ومحسوسة حتى يمكنها السيطرة على الطبيعة وإخضاعها الإنساني وعظمته ،فهي ليست كلاما وليست شعارات فارغة ، ولكنها صناعات واختراعات واكتشافات مادية ، إن اختراع المقلى الذي لا يلصق به الطعام يمثل حضارة وعلى ذلك فلتقس الأمور . ونعتقد أنه من المحال الانتصار على حضارة مهما كانت أو أن ندعي بوجود حضارة بدون أن ترتكز على عمودها الأول وهو ( العامل المادي ). فالعامل المادي هو مبرر وجودها ، وهو يعني إحداث شيء على الطبيعة قادر على إثبات وجوده ، ويتم ذلك من خلال الاختراعات . فالصاروخ عبر القارات والأقمار الصناعية التي تجوب العالم شرقا وغربا وشبكة الانترنت في الاتصالات تمثل الآن أسمى معاني الحضارة البشرية .

وحتى الحضارة الإسلامية جاءت لتؤكد هذه الحقائق فارتبطت مباشرة بالعامل المادي وما الزكاة ومشاركة الفقير في ثروة الغني أو اقتسام الغنائم المادية إلا معاني مادية سامية عملت على شق الطريق أمام تحرير الفقراء والعبيد وإخراجهم من الوضع الذي كانوا فيه .

***ثانيا :*** ولا بد من معاني إنسانية فاضلة وزرع الفضيلة في نفوس الناس ، وهي الأفكار التي تعمل على السمو بالإنسان وتنقله من عالم الحيوان ، فالإنسان بطبيعته عبد لرغباته وإذا كان كذلك فما هو الشيء الذي يفرقه عن الحيوان ؟ لذلك لا بد من نقل هذا الإنسان الذي كرم من رب العالمين نقلة حضارية روحية وتمثل " العامل الروحي " .

إن هناك إجماعا على مختلف الأزمنة والعصور بان أعظم منتصر هو الذي ينتصر على نفسه ليس بمهزوم ، لذلك فإن الإنسان العاقل هو الذي يقوم بعملية تقييم يومي في سبيل تهذيب النفس وتربيتها ومعرفة المشاكل والأخطاء والأخطار ومحاولة الابتعاد عنها ، إن العظمة تتمثل في عقاب النفس وترويضها وهذا لن يتم إلا للقلة القليلة من بني البشر وهم القادة والرياديون الذين

يعملون على نقل مجتمعاتهم وأممهم إلى وضع أرقى وأشرف وأنبل . ويوضع هؤلاء الناس في مرتبة الملائكة وليس البشر ، لأنهم يحسون بداخل أنفسهم أنهم من أجل هذا خلقوا ولا معنى للحياة بدونه .

مثل هؤلاء القادة دائما موجودين ، لكن هناك من البيئات ما تأخذ بأيديهم وتدفعهم ليظهروا وينجحوا ويقودوا أممهم ، ومنها " البيئة العربية بالذات " مما يعمل على دفنهم أحياء قبل أن يظهروا .

ليس من مصلحة السلطة أي ظهور مثل هؤلاء النوابغ ، لذلك تعمل وسائل إعلامهم على التبشير والتحذير منهم وتصفهم بأنهم جماعة متمردة وخارجة عن القانون والويل والثبور لكل من يقربهم أو يعمل على شد أزرهم ومساعدتهم والتنظير لهم.

لذلك فهم يموتون قبل أن يولدوا .... هذا إن وجدوا !!!

إن أسمى ما يتحلون به هو الصدق والمصداقية وإن أكثر ما ينقصنا هو المصداقية ، فتسمع الكثير الكثير ، لكنك إذا ما رأيت الأمر على أرض الواقع ترى العجب العجاب ، وأروع ما لاحظت حول هذا الأمر أن سيدة هندية جاءت يوما إلى غاندي تطلب منه أن يتدخل لمنع ابنها من استخدام كميات كبيرة من السكر ، وبعد أن فكر في الأمر طلب منها إحضار بعد عشرة أيام ، خاصة وأن الابن معجب بالمهماتما غاندي ، وفعلا جاءت به بعد عشرة أيام فما كان من غاندي إلا أن طلب من الولد أن يمتنع عن استخدام السكر ، وفعلا قبل الولد ذلك من غاندي ، فشكرته السيدة على فعله شكرا عظيما لأن ذلك كان يمثل لها مشكلة كبرى . إلا أنها استفسرت منه لماذا طلب مني أن أحضر بعد عشرة أيام ؟!

فأجاب غاندي :لأنني نفسي أحتاج إلى هذه العشرة أيام حتى أمتنع عن تناول السكر !! ولا أستطيع أن أطلب من أحد من الناس بالامتناع عن شيء وأنا نفسي أمارسه .

وصدق الشاعر الذي قال :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله          عار عليك إذا فعلت عظيم .

هذا ما نحتاجه .......

المصداقية ، وهذا هو ما ينقصنا في دفة القيادة والريادة !!

## *ثالثا : حرية الإنسان :*

إن أروع ما سطره سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد سطر الكثير الكثير هو مقولته المشهورة مخاطبا عمرو بن العاص : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " ، لقد خلق الإنسان حرا كريما عزيزا ، ولن تصل أمة من الأمم طالما بقي أبناؤها أذلاء مقهورين مدحورين مهزومين ، وأشد أنواع الهزيمة هي شعور الإنسان بأنه مهزوم من الداخل .

إن الأمة لا يمكن أن تنجح إن لم تتح الفرصة لأولادها بان يفكروا ويعملوا ويناضلوا وهم أعزاء كرماء شرفاء إن حالات الإبداع والعبقرية هي نتيجة انعكاس لمشاعر خاصة وذات خصوصية

لأصحابها وإذا كانوا عاجزين عن التعبير عنها إما خوفا أو طمعا أو لأي سبب من الأسباب فإن ذلك يعمل على وأد العبقرية والإبداع والريادة في النفوس .

والغريب أننا نقوم بوصف أبناء الغرب بأنهم عبيد للمادة ، وأن ديمقراطيتهم شكلية ، وأن حريتهم مقتولة ، إذا كانوا كذلك فماذا نقول عن الناس في بلادنا وقد تجاوزوا كل حدود الأدب في سلوكهم وفرض نزواتهم وجنونهم وحماقتهم على الآخرين ، وأبواق السيارات في الأعراس وغير الأعراس ، قيادة السيارات في الشوارع ، أشرطة التسجيل ذات الأصوات المزعجة في الأسواق والبيوت والمقاهي ..... الخ .

ماذا نقول عن ذلك سوى الفوضى وقلة الذوق العام " والزعزعة " وقلة الأدب .

إن الحرية واضحة وهي مشروطة بأنها تنتهي عندما تبدأ حرية غيرك!!

ماذا يعني تدخلنا في بعضنا بعضا لدرجة المضايقة وكتم الأنفاس والتدخل في الخصوصيات .

وأي إنسان يحرم من خصوصياته تكون قد حرمته من أسمى شيء في وجوده ..إن لكل منا خصوصياته يظل الإنسان أمينا حافظا كاتما لها لا يعلمها إلا الله !!! فماذا نقول عن مثل هذا الوضع ؟؟؟

وإذا كنت تريد مني أن أفكر وأتعرف وأسلك الطريق الذي تريد !! فماذا أبقيت لي كإنسان آدمي وأين حريتي في أن أختار أو أفكر؟

إذا كنت تطلب مني أن أكون ببغاء لترديد ألفاظك فكيف سأصل عن ذاتي وشخصي وأفكاري ؟؟؟

وكما أسلفت فإن ذلك يجب أن يكون معبرا عن أحاسيس صادقة ومعبرة وظروف أس بها وأعيشها هذه هي حريتي !!

أما أن تقيدني وتكبل عقلي وتقول لي فكر فمن أين لي أن أفكر ؟!...

## ***رابعا : احترام النظام والخضوع له :***

طواعية ، وعن رغبة ، وبدون مراقبة ، وبدون فرض ، إذا وصلنا هذا الوضع سنكون بألف خير ، ومن المفروض أن صفوة الناس أو أصحاب الرسالة أو المسئولين يجب أن يكونوا أول من يخضع لتلك الأمور ، أما أن توضع للناس ومن يضعها يكون أول من يخرج عنها ويخترقها فهذه كارثة أخلاقية .

من المحال على امة متحضرة أن تصل إلى الأسمى والأرقى أو تنجح بدون أن تتقيد بمعايير وبقوانين طبقا للحاجة والظروف ، وفي النهاية يحاسب الناس فيكافئ المجد والملتزم ويعاقب الكسول والخائب .

وأذكر بالمناسبة قصة في الحرب العالمية الثانية في بريطانيا عندما أقاموا مطارا في إحدى القرى وكان قريبا من إحدى المحاكم البريطانية وكان مزعجا لأعمال ومجريات الأمور في المحكمة فطلب رئيس المحكمة بتوقيف عمل المطار أثناء المحاكمات ، وأحرج الشخص المسؤول عن المطار ، فنقل المعلومة على وزير الدفاع وأحرج أيضا وزير الدفاع البريطاني ، فرفعت القضية إلى تشرشل وعندما نظر في الأمر أمر فورا بوقف العمل في المطار وقال مقولته المشهورة : " أن ينتصر القضاء وتهزم بريطانيا أفضل من أن تنتصر بريطانيا ويهزم القضاء "!!!!.

# فأين عدالة القضاء في بلادنا ؟؟!!

أين هي من حقوق المظلومين والمقهورين ؟ أين هي حقوق غير المسموعين وغير المرئيين ؟؟!

وهذا كله لن يتم إلا من خلال :

أولا : زرع الفضيلة في نفوس البشر من خلال أصحاب الرسالة ( فنانين وكتاب وأدباء ومفكرين )

وإذا ما قارنا بين ما هو كائن فعليا وما يجب أن يكون لرأينا العجب العجاب !! ، وهذه الفكرة توجز الكثير : أن تبقى الدنيا بألف خير إذا رأيت أصحاب السلطان أمام بيوت أصحاب العلم وتكون كارثة إذا رأيت أصحاب العلم يقفون طوابير أمام أصحاب السلطان !!

فأين الفضيلة وأين العلم ؟ وأين الخلق ؟ وماذا يقول هؤلاء الناس ؟ إذا فرضت عليهم الحياة بأن يتخلوا عن كل فضيلة من أجل المال .

وكيف يكون احترام مثل هؤلاء من قبل الناس وهم يشاهدون بأنهم أصبحوا بوابين وسماسرة لأصحاب السلطة والجاه ، أن من يمد يده طالما من لآخرين الحاجة والعوز ويعني انه من ناحية أخرى أصبح عبدا لسيده ولا يستطيع عمل شيء وهذا في معظم الحالات ما يقتل حالات الإبداع لدى مفكرينا وفنانينا فيخرج أدبا ضحلا وفنا مزورا !!.

والمطلوب :

- محاربة الذات والشعور بالرفعة والعزة .
- وكذلك العمل أن يكون قدوة للآخرين .

وهذا لن يتم إلا بتهذيب النفس وترويضها .

**ثانيا :** إن أهم شيء يجب التركيز عليه ، بل أن أسمى ما في الوجود وأنبل ما نبحث عنه هو الأخلاق و الأخلاق في النهاية تعني الدين ، فالخلق والفضيلة والمشاعر النبيلة في نهاية المطاف هي التي تحتم على الإنسان وتميزه عن الحيوان وهي التي تحكم على أمة من الأمم بأنها منحطة أو صاحبة رسالة ورفعة وعظمة .

**ثالثا :** المبادئ والأفكار

وعلى أصحاب الرسالة والمفكرين والفنانين أن يقوموا بغرس الفضيلة في النفوس من خلال المبادئ الإنسانية والمثل والقيم وهذا لن يتم بدون لغة وبدون أفكار ..

ودائما تفترش الحياة بالدم والضحايا ... وقد يسقط الكثيرون في طرحهم لأفكارهم ومبادئهم لكن التواصل والاستمرارية في الطرح يجعل الفقراء والضعفاء والمسحوقين والمغلوبين والمعذبين في الأرض والمقهورين يرون بإيمان بأن مصلحتهم وحياتهم وبقائهم تكون في الإيمان قولا وفعلا وعملا بمثل هذه المبادئ لذلك يكونون على استعداد للموت والدفاع عنها لأنها تمثل رجائهم الأخير في الحياة ، وبذلك تنتصر الفضيلة وتندحر الرذيلة ، وإجمالا فإن الفضيلة مرتبطة دائما بالعلم والرذيلة مرتبطة دائما بالجهل .

وإذا كان لكل عصر رمزه فإن لكل عصر لغته وفكره ، وما انحطاط اللغة والفكر إلا بانحطاط الإنسان وقيمه !!

فالأمم التي تقوم على التعصب تسود حياتها على لغة ركيكة ضعيفة هزيلة تكون مرتبطة أشد الارتباط بالجهل والخرافات والسحر والتعاويذ ، ومثل هذه الأمة لن تقوم لها قائمة .

في حين أن الأمة التي تحترم العلم والعلماء تكون تصرفاتها وسلوكها على منهج علمي وطبقا للدراسات العلمية ، ولا تنهج في حياتها وسلوكها طرقا اعتباطية ولا تنطلق من أوهام .

ففي النهاية فإن الحضارة تموت نتيجة خلل وعطب في النسيج الإنساني للأمة من عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية ، وتكون لغتها وأفكارها منسجمة مع هذا العطب مما يحدث جوا غير صحي وبيئة فاسدة مظهرة النتوءات والنشوز ويسود في مثل هذا الوضع الكذب والزيف والافتراء والنفاق ، وتموت الفضيلة وتسود الرذيلة ، ويكثر الفساد وتعم الفوضى ويدمر المجتمع .

## فهل من معتبر !!!!